مقدمة المؤلِّف للطبعة العربية

لهذا الكتاب الذي يُبصِر النورَ اليوم باللغة العربية في موضوع الماتريدي، حكايةٌ تمتدُّ جذورها عبْر الزمن، وتتشابك بخيوطها مع مسيرتي العلمية بأوثق الصِّلات؛ لهذا أستسمح القارئ أن أسردَ بين يديه بإيجازٍ محطّاتٍ من تاريخ هذا الكتاب وما صاحب رحلتَه من تجارب.

تعود البداية إلى أواخر ثمانينيّات القرن العشرين، حين شرعْتُ أتعمّق في دراسة الكلام الماتريدي. كان اسم الماتريدي لامعًا في الأفق، لكن الدراسات عنه وعن مذهبه كانت شحيحةً نادرة؛ بل إنّ مؤلفاته نفسها كانت من الندرة بمكان؛ فتحقيق «**كتاب التوحيد**» (تحقيق فتح الله خليف، بيروت 1970م) كان متوفرًا لكنه غير موثوق، كما أكد ذلك نخبةٌ من الباحثين؛ منهم أستاذي جوزيف فان إس (في: *Oriens* 27-28/1981/561-565)، أما تفسيره للقرآن «**تأويلات أهل السنة**» فكان أصعبَ منالًا، فقد بدأ مشروعان لتحقيقه لكنهما توقّفا في وقت مبكر، واقتصرا على نشر نصوص مجتَزَأة من هذا السفر الضخم (تحقيق: إبراهيم والسيد عوضين، القاهرة 1971م، حتى الآية 141 من سورة البقرة؛ وتحقيق محمد رحمن، دكا 1982م، حتى الآية 161 من سورة البقرة).

شهدت تسعينيّاتُ القرن الماضي منعطفًا حاسمًا في الدراسات الماتريدية؛ حيث هبّت رياحُ التحوّل العاصفةُ التي أعادت توجيه بوصلة الاهتمام البحثي نحو تراث الماتريدي؛ ففي عام 1995م انبثق من كوالالمبور عملٌ تأسيسي تحت عنوان: *Roots of Synthetic Theology in Islam: A Study of the Theology of Abū Manṣūr*

al-Māturīdī (d. 333/944 لمصطفى تشيريتش. ثم ما لبثت أن تلتْه في عام 1997م دراستي المنشورةُ في ليدن: *Al-Māturīdī und die sunnitische Theologie in Samarkand* في طبعتها الألمانية الأم. وبموازاة هذه التطورات، كان سليم دكّاش ينسج خيوط بحثه *Le problème de la création du monde et son contexte rationnel et historique dans la doctrine d'Abū Manṣūr al-Māturīdī* وكان قد قدّمه أطروحةً علمية للدكتوراة في باريس عام 1988م، ليرى النور بعد عقدَيْن مطبوعًا في بيروت عام 2008م.

وفي التسعينيّات أيضًا شهدت الساحةُ الفكرية انبثاقَ نجم الماتريدي في آفاق أوسع؛ حيث تجاوزت شهرتُه الأوساطَ الأكاديمية إلى دائرة الاهتمام العام. انطلقت شرارة هذه النهضة من أوزبكستان، التي تَفَيَّأَتْ ظلَّ عالِم سمرقند بعد طول إهمال، وأعادت اكتشاف تراثه المغمور. وقد فُتح هذا البابُ على مصراعَيْه لتواصل علمي مثمر؛ حيث توالت رسائل الزملاء الأوزبكستانيين مشرعةً أبوابَ تعاونات بحثية متنوعة. ثم توّجت هذه الجهود بإصدارات متعاقبة لكتابي عن الماتريدي: فالطبعة الروسية في طشقند (1999م)، ثم الطبعة الأوزبكية (2001م)، ليُختصر بعدها في نسخة ميسرة عام (2002م). وقد تشرفتُ عام (2000م) بحضور حفل تدشين الضريح المجدد للماتريدي في مقبرة «جاكرديزا» بسمرقند. وعلى مدى السنوات التالية نُقّبَ عن النقوش الجنائزية التاريخية في تلك البقعة، فأسفرت الجهود البحثية عن مصنفٍ ضخمٍ وثّق هذه الكنوز الأثرية *Epitaphs of Muslim Scholars in Samarkand [10th-14th Centuries]* بتحرير: بختيار بابادجانوف، ولولا دودخودويفا، وآشيربك مومينوف، وأولريش رودولف (إسطنبول: 2019م). ولم تكد تمضي سنوات حتى عدتُ عام 2024م إلى ضريح الماتريدي، لكنْ هذه المرة برفقة ثُلّة من طلبة العلم والزملاء من زيورخ، في رحلةٍ علميةٍ تركتْ في نفوسنا أثرًا لا يُمحى.

بَيْدَ أنَّ النهضة الماتريدية لم تحصر أجنحتها في أوزبكستان، بل امتدّت بعد عام 2000م لتطال آفاقًا أوسعَ. وتألّقت تركيا في هذا المضمار؛ حيث عادت كتابات الماتريدي لتحيي تراثًا عثمانيًّا عريقًا وتستقطب اهتمامًا معاصرًا متجددًا. وأفرز هذا

الاهتمامُ ثمارًا أكاديميةً متنوعة، فانعقدت المؤتمرات الدولية الأولى حول الماتريدي (إسطنبول 2009م)، وصدرت طبعة نقدية لـ«**كتاب التوحيد**» (أنقرة 2003م) تميّزت بدقة غير مسبوقة، كما ظهرت الطبعة الضخمة لـ«**تأويلات أهل السنة**» في ثمانية عشر مجلدًا (إسطنبول 2005 - 2011م). ولم تقتصر هذه النهضة على الأعمال المحققة، بل شملت أيضًا إصدار الترجمة التركية لكتابي (إسطنبول 2016م).

بل الأكثر إدْهاشًا أن الاهتمام بالماتريدي تجاوز الحقل الأكاديمي لينفذ إلى صميم الوجدان الإسلامي المعاصر؛ حيث تحظى عقيدته بحضور طاغٍ وإقبال متزايد؛ ذلك أنها تقدّم إجابات عن إشكالات عصرية عويصة، كالتناظر بين البرهان العقلي والنقل الديني، وإشكالية الجبر والاختيار؛ مما يجعلها مرجعيةً عقدية لا تقتصر على عصرها بل تمتدُّ صلاحيتها إلى واقعنا المعاصر. ومن هنا يُلمس تأييدٌ واسعٌ للمنظومة الفكرية الماتريدية لدى شريحة عريضة من المسلمين اليوم. وقد تجلّى هذا الأمر لي تجلِّيًا ملموسًا أثناء محاضراتي المتعددة عن الماتريدي، وكذلك لما توالت ترجمات كتابي عنه إلى لغات مختلفة (الإنجليزية 2015م، البوسنية 2018م، والفارسية 2025م).

وأخيرًا، هاهو الكتاب يبلغ شاطئ اللغة العربية بعد رحلة علمية طويلة، وهذا مما يغمر النفس غبطةً وامتنانًا؛ إذ يرى النور باللسان الذي اختاره الماتريدي نفسه لتأليف مصنفاته الكلامية؛ فلهذا أتوجه بالشكر والعرفان إلى كل من أسهم في إخراج هذه الترجمة إلى حيز الوجود، ولا سيما «**مركز نماء للبحوث والدراسات**» الذي احتضن هذا المشروع تحت مظلته المؤسسية. غير أن عظيم الامتنان أوجهه خاصة إلى المترجم «**د. محمد مجدي السيد**»، الذي أبدع في نقل هذا النص الإنجليزي المعقّد إلى العربية بأمانة علمية نادرة، وزاد عليه مقدمة ضافية (**مقدمة المترجم**) استشفّ فيها سياقَ العمل، واستعرض أحدثَ الدراسات الماتريدية بصورة وافية. فله منّي -على هذا الجهد المُتفرّد والمتميّز من كل الوجوه- أعمق الشكر وأصدق الثناء.

أولريش رودولف

زيورخ، سبتمبر 2025م